رسالة التطويبات
(مت ٥: ٣-١٢)

الأب سمير بشارة اليسوعيّ

مقدّمة

ليس من السهل على الإنسان أن يعيش في عالم مخضوض بالصراعات السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة خاصّةً...

كم هي عديدة التعزيات التي يقدّمها مجتمعنا، وكم هي عديدة أيضًا الانقباضات! يتبيّن لنا أنّ السعداء اليوم، كما البارحة، هم الأغنياء والأقوياء والجالسون على العروش...؛ فهل من وصفة سحريّة للسعادة؟ وهل يكفي، لنعيش سعداء، أن...

ربّما أن نقرأ الكتاب المقدّس !

يتمّ التعريف عادةً، في الكتاب المقدّس، عن الأفراح والأتراح عبر كتالوجات أو لوائح محدّدة.

كان العهد القديم يتلو بصوت عال وعلى الجبل (جبل جريزيم وعيبال) لائحة رسميّة باللعنات (رج تث ١٢)، بينما الإنجيل لن يتردّد أن يتلو بصوت عال وعلى الجبل أيضًا لائحة رسميّة بالتطويبات. وينتهي العهد القديم مع سفر ملاخي بلعنة علنيّة فاضحة (الفصل ٦)، بينما يُفتتح العهد الجديد مع الإنجيل ببركة علنيّة ملمّحًا إلى أنّ الشريعة، أمس، كانت محامية الموت، أمّا الإنجيل، اليوم، فهو محامي الحياة. أن نكون سعداء : ربّما كان هذا هدف مجيء المسيح على الأرض...

فما هي شروط السعادة؟ وإلى أيّ مدى رسالة التطويبات في إنجيل متّى قادرة أن تعطينا جوابًا واضحًا؟

سنلقي نظرة شاملة على بنية التطويبات، ومن ثمّ نعرض تحليلاً لبعض المصطلحات.

مت ٥: ٣–١٢:

«٣طوبى لِفُقراءِ الرُّوح فإِنَّ لَهم مَلكوتَ السَّمَوات.

٤طوبى لِلوُدَعاء فإِنَّهم يرِثونَ الأَرض.

٥طوبى لِلْحزانى، فإِنَّهم يُعَزَّون.

٦طوبى لِلْجياعِ والعِطاشِ إلى البِرّ فإِنَّهم يُشبَعون.

٧طوبى لِلرُّحَماء، فإِنَّهم يُرْحَمون.

٨طوبى لأَطهارِ القُلوب فإِنَّهم يُشاهِدونَ الله.

٩طوبى لِلسَّاعينَ إلى السَّلام فإِنَّهم أَبناءَ اللهِ يُدعَون.

١٠طوبى لِلمُضطَهَدينَ على البِرّ فإِنَّ لَهم مَلكوتَ السَّمَوات.

١١طوبى لكم، إِذا شَتَموكم واضْطَهدوكم وافْتَرَوْا علَيكم كُلَّ كَذِبٍ مِن أَجلي،

١٢إفرحوا وابْتَهِجوا: إِنَّ أَجرَكم في السَّمَاواتِ عظيم، فهكذا اضْطَهدوا الأَنبِياءَ مِن قَبْلِكم».

أ – نظرة شاملة

تتألّف المجموعة المدوّنة في مت ٥: ٣–١٢ من تسع تطويبات، ويشير إلى ذلك تكرار المصطلح «طوبى» تسع مرّات. تُكوِّن التطويبات الثمانية الأولى وحدة أدبيّة: تكرّر التطويبة الثامنة حرفيًّا السعادة المذكورة في التطويبة الأولى: «فإنّ لهم ملكوت السماوات». يبيّن هذا الاحتواء مضمون المكافأة التي تدور حول «ملكوت السماوات». فما هو مفهوم هذا الملكوت؟ وما هي في الواقع شروط الدخول إليه؟

تنقسم هذه التطويبات أدبيًّا إلى قسمين، وكلّ قسم مؤلّف من أربع تطويبات: تذكر التطويبتان الرابعة والثامنة المصطلح ذاته: «البرّ»؛ سيأتي التركيز في العظة على الجبل على البِرّ الذي يطلبه يسوع من التلاميذ ليدخلوا ملكوت السماوات (٥: ٢٠ و٦: ١ و٣٠)؛ فيشكّل البرّ إذًا الصلة ما بين العظة على الجبل والتطويبات.

إنّ التطويبة التاسعة من طراز مختلف: التطويبات الأولى مختصرة، أمّا هذه فهي موسّعة. التطويبات الأولى في صيغة الغائب (بُعد الشموليّة)، أمّا هذه فهي في صيغة المخاطب (أنتم)، وهي موجَّهة مباشرةً إلى التلاميذ. التطويبة التاسعة إمتداد واضح للسلسلة السابقة إذ تخصّ، كما التطويبة الثامنة، أناسًا سيعانون الاضطهادات؛ وبتوجيهها إلى التلاميذ مباشرةً تُكَوِّن مدخلاً إلى القسم الثاني من العظة على الجبل.

نحن إذًا أمام مجموعة من ثماني تطويبات تنقسم إلى مقطعين؛ ثمّ هناك تطويبة تاسعة تمهّد للوصايا المقبلة، والتي توضّح الدور الذي سيقوم به التلاميذ أمام العالم (مثل دور الملح في الأرض والنور في العالم،...).

ب- تحليل

تتبع التطويبات هيكليّة أدبيّة واضحة: منادى «طوبى»؛ يليه «هويّة» الأشخاص الذين ينالون التطويبة؛ ومن ثمّ ذكر «السعادة» أو المكافأة الموعود بها.

١- طوبى (*makarioi*)

تعني عبارة «طوبى» تهنئة وبركة في آن واحد، وتضمّ الاعتراف بحالة سعادة تتحقّق أو على قيد التحقيق. ويرد المصطلح «طوبى» في إنجيل متّى في أربعة مراجع أساسيّة: ١- «الموتى يقومون والفقراء يبشَّرون، **وطوبى** لمن لا أكون له حجر عثرة» (١١: ٦).

إنّ الإطار هو شهادة يسوع أمام تلاميذ يوحنّا المعمدان: والتطويبة مرتبطة بالجذريّة (وعدم تعطيل الشهادة) التي ترافق **افتتاح الملكوت من قبل يسوع**.

٢- «**طوبى** لعيونكم لأنّها تبصر ولآذانكم لأنّها تسمع» (١٣: ١٦). إنّ الإطار هو إعلان يسوع أسرار الملكوت: والتطويبة مرتبطة برجاء الأنبياء والصدّيقين **لمشاهدة المسيح**: «إِنَّ كثيرًا مِنَ الأَنبياءِ والصِدِّيقينَ تَمَنَّوا أَن يَرَوا ما تُبصِرونَ فلَم يَرَوا، وأَن يَسمَعوا ما تَسمَعونَ فلَم يَسمَعوا» (١٣: ١٧).

٣- «**طوبى** لك يا سمعان بن يونا...» (١٦: ١٧).

إنّ الإطار هو شهادة إيمان بطرس: والتطويبة مرتبطة بالكشف عن **هويّة يسوع الحميمة**: «أَنتَ المسيحُ ابنُ اللهِ الحَيّ» (١٦: ١٦).

٤- «**طوبى** لذلك الخادم الذي إذا جاء سيّده...» (٢٤: ٤٦). إنّ الإطار هو مثل الوكيل الأمين: والتطويبة مرتبطة بعلامات الأزمنة التي سترافق **مجيء إبن الإنسان** (٢٤: ٤٤).

نلاحظ أنّ المصطلح «طوبى» مرتبط في إنجيل متّى وبشكل واضح بشخص المسيح، والكشف عن هويّته ورسالته، وفي الإطار ذاته: تدشين ملكوت السماوات.

٢- هويّة الأشخاص الذين ينالون التطويبة

ترتبط السعادة أو المكافأة الموعود بها[١] بهويّة الأشخاص الذين ينالون التطويبة. وتكشف عدّة مصطلحات عن هذه الهويّة : فقراء؛ حزانى؛ ودعاء؛ جياع وعطاش؛ رحماء؛ أطهار؛ فاعلو السلام؛ مضطهَدون.

(١) تتمحور السعادة أو المكافأة الموعود بها حول ثلاثة عناصر أساسيّة: أن نصبح ورثة، وأبناء، وأن نتنعّم بمشاهدة الله.

فقراء (*ptokhoi*)

يرد المصطلح «فقراء» ثلاث مرّات في إنجيل متّى:

– «إذهبوا فأخبروا يوحنّا... : الموتى يقومون **والفقراء** يبشَّرون» (١١: ٣؛ الإطار: يسوع يعلن بشارة الملكوت).

إنّ «تبشير الفقراء» هو دليل واضح للكشف عن هويّة يسوع؛ راجع في هذا الإطار سؤال تلاميذ يوحنّا المعمدان ليسوع: «أأنتَ الآتي؟ ...» (١١: ٣)، فيأتي جواب يسوع علنًا : «إذهبوا فأخبروا... الفقراء يبشَّرون ...»؛ كما هو شرط أساسيّ لإعلان بشارة الملكوت (١١: ٢-٦). من جهّة أخرى، يحرم المسيح من الطوبى من لا يسعى معه إلى تبشير الفقراء : «... الفقراء يبشَّرون، وطوبى لمن لا أكون له حجر عثرة» (٦: ١١). يَتَبَيَّن بوضوح من خلال هذا «الحرمان» كم أنّ المسيح معنيٌّ بالفقراء، لدرجة أنّ كلّ من يعارضهم أو يتصدى لهم يكون بمثابة عدوّ له ولرسالته.

– «أعطِ أموالك **للفقراء**، فيكون لك كنز في السماء، وتعال فاتبعني» (١٩: ٢١؛ الإطار: دعوة الشاب الغنيّ).

يوضح يسوع هنا أنّ إغاثة الفقراء هي سبيل لنيل الكمال: «إذا أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع ...» (١٩: ٢١)، كما أنّها شرط أساسيّ للتتلمذ للمسيح؛ ومن لا يسعى إلى هكذا تَخَلٍّ يبقى حزينًا (عدم الطوبى) : «انصرف حزينًا لأنّه كان ذا مال كثير» (١٩: ٢٢).

يبرز هذا الحدث تمثّل المسيح بشخص الفقير، بحيث أنّ الذي لا يتخلّى عن كلّ شيء ويفتقر مثله لا يستطيع أن يكون له تلميذًا.

– «**الفقراء** عندكم دائمًا أبدًا، وأمّا أنا فلست عندكم دائمًا أبدًا» (١١: ٢٦؛ الإطار: دهن يسوع بالطيب).

الفقراء – عندكم – دائمًا أبدًا // أنا – لست عندكم – دائمًا أبدًا. يُبرز التوازي القائم بين شطرَي هذه الآية أنّ يسوع بمثابة فقير يحقّ له الإكرام.

ويرتبط هذا الإكرام بالإشارة إلى موته ودفنه. كما يُعتبَر هذا الإكرام «بشارة» (أي مساهمة في تدشين الملكوت : «الحقّ أقول لكم: حيثما تُعلَن هذه **البشارة** في العالم كلّه، يُحدَّث بما صنعت إحياءً لذكرها» (١٣: ٢٦).

تعبّر هذه المراجع الثلاثة بوضوح عن رغبة يسوع في تماثله بالفقراء، وعن جذريّة ارتباط مصيره بمصيرهم.

إنّ كلمة «فقراء» مقترنة في هذه التطويبة بكلمة أخرى: «الروح». يرد المصطلح «روح» – بالمعنى «البشريّ» – مرّة واحدة في إنجيل متّى : «إسهروا وصلّوا لئلاّ تدخلوا في التجربة. **الروح** مندفع وأمّا الجسد فضعيف» (٢٦: ٤١). إنّ الإطار هو صلاة يسوع في بستان الزيتون)؛ ويطلب يسوع من التلاميذ أن يمكثوا معه ثابتين في السهر والصلاة : «أمكثوا هنا واسهروا معي» (٢٦: ٣٨). إنّ «اندفاع الروح» عليه أن يُلزِم التلاميذ على مرافقة المسيح في ساعة التخلّي هذه، التخلّي عن مشيئته الشخصيّة : «فلتبتعد عنّي هذه الكأس، ولكن لا كما أنا أشاء، بل كما أنت تشاء» (٢٦: ٣٩). يتّضح لنا من خلال هذه المراجع الثلاثة أنّ الفقر الروحيّ يكمن في الاستعداد الجذريّ للتتلمذ للمسيح، في السهر والصلاة، و التخلّي عن المشيئة الشخصيّة لكي، على غرار المعلّم، الفقير الأوّل، نسعى بتواضع إلى تحقيق مشيئة الآب.

حزانى (*penthountes*)

– «أيستطيع أهل العرس أن **يحزَنوا** ما دام العريس بينهم؟» (٩: ١٥).

يرد المصطلح «حزن» مرّة واحدة في إنجيل متّى، في إطار جدال يسوع مع تلاميذ يوحنّا حول مسألة الصوم. جواب يسوع واضح: ما يسبّب الحزن هو غياب العريس (موته ورفعه). ويتّضح مفهوم الحزن هذا، إذ يأتي الفعل «حزن» في تواز مباشر مع فعل «صام» (أي «امتنع»): «لكِن سَتَأتي أيّامٌ فيها يُرفَعُ العَريسُ مِن بَيْنِهم، فَحينَئذٍ يَصومون» (٩: ١٥). يكمن الحزن إذًا في حالة الغياب عن أو الامتناع: وهو الغياب «عن الأكل» في الصوم – والغياب عن الحبيب عند ساعة الموت.

تشير التطويبة «طوبى للحزانى» في إطار كهذا إلى وضع المؤمن الذي يفتقد إلى الحبيب ويتوق إليه دائمًا؛ ولم يزل حزينًا ما دام الحبيب غائبًا.

نستنتج أنّ الحزن هنا ليس بالضرورة شعورًا سلبيًّا لكن حركة داخليّة تمتاز بالبحث عن الحبيب والسعي المستمرّ إلى الالتقاء به.

ودعاء (*praés*)

– «إحملوا نيري وتتلمذوا لي فإنّي **وديع** متواضع القلب» (١١: ٢٩).

– «هوذا ملككِ آتيًا إليكِ **وديعًا** راكبًا على أتان...» (٢١: ٥).

ترتبط الوداعة في هذين المرجعَين «بدراما الآلام»: يشير الإطار الأوّل إلى ضرورة حمل النير، والإطار الثاني إلى دخول المسيح أورشليم؛ ويتّضح هنا مفهوم الوداعة: إنّها تعزية للمتعبين والمرهقين، وتفترض تواضعًا وانحناء قلب (١١: ٢٨-٣٠)، كما عليها أن تنفي حبّ الظهور والصدارة (راكبًا على أتان...) وأن تتقبل إهانة الصليب و ذلّه.

جياع وعطاش (*peinontes-dipsontes*)

يرد فعل «جاع» أربع مرّات في الإنجيل، وفعل «عطش» مرّة واحدة ؛ والملفت أنّ يسوع هو المعنيّ دائمًا في هذه المراجع :

– «فصامَ أَربَعينَ يومًا وأَربَعينَ لَيلةً حتَّى **جاع**» (٣: ٢؛ تجربة يسوع في البرّيّة).

– «في ذلك الوَقْتِ مَرَّ يسوعُ في السَّبْتِ مِن بَينِ الزُّروع، **فجاعَ**...» (١٢: ١؛ أكل السنابل يوم السبت).

– «وبينَما هو راجعٌ إلى المَدينَةِ عِندَ الفَجْر، **أَحَسَّ بالجوع**» (٢١: ١٨؛ يسوع يلعن التينة).

– «لأَنِّي جُعتُ فأَطعَمتُموني، **وعَطِشتُ** فسَقَيتُموني، وكُنتُ غَريبًا فآويتُموني» (٢٥: ٣٥؛ مثل الدينونة الكبرى).

يتبيّن لنا، من خلال إطار كلّ حدث، أنّ لجوع المسيح وعطشه مفهومًا واضحًا:

في الإطار الأوّل (تجربة يسوع في البرّيّة)، إنّه **الجوع لكلمة الله**: «مكتوبٌ: ليسَ بِالخُبزِ وَحدَه يَحيْا الإِنْسان، بل بِكلِّ كَلِمَةٍ تَخرُجُ مِن فَمِ الله» (٣: ٤).

وفي الإطار الثاني (أكل السنابل يوم السبت)، إنّه **الجوع لكي تكون الشريعة في خدمة الإنسان**: «ولوفَهِمتُم مَعنى هذه الآية: إِنَّما أُريدُ الرَّحمَةَ لا الذَّبيحة، لَما حَكَمتُم على مَن لا ذَنْبَ عَلَيهِم؛ فَابنُ الإِنسانِ سَيِّدُ السَّبْت» (١٢: ٧).

وفي الإطار الثالث (لعن التينة)، إنّه **الجوع لنموّ الإيمان عند التلاميذ**: «فأَجابَهم يسوع: الحَقَّ أَقولُ لكم: إِن كانَ لَكم إِيمانٌ ولم تَشُكّوا، لا تَفعَلونَ ما فَعَلتُ بِالتِّينَةِ فَحَسْبُ، بل كُنتُم إِذا قُلتُم لِهذا الجَبل: قُمْ فاهبِطْ في البَحر، يَكونُ ذلك؛ فَكُلُّ شَيءٍ تَطلُبونَه وَأَنتُم تُصَلُّونَ بِإِيمانٍ تَنالونَه» (٢١: ٢١-٢٢).

وفي الإطار الرابع والأخير (مثل الدينونة الكبرى)، إنّه **الجوع والعطش لعمل الخير تجاه كلّ إنسان**: «الحَقَّ أَقولُ لَكم: كُلَّما صَنعتُم شَيئًا مِن ذلك لِواحِدٍ مِن إِخوتي هؤُلاءِ الصِّغار، فلي قد صَنَعتُموه» (٢٥: ٤٠).

«طوبى للجياع والعطاش إلى... البرّ»: يتّخذ البرّ في ضوء ما سبق مفهومًا واضحًا: يرتكز البرّ على تعزيز كلمة الله في حياة الإنسان، وتنشيط إيمانه، والسعي إلى عيش فضيلة المحبّة والخدمة، جاعلاً الشريعة للإنسان وليس الإنسان للشريعة.

رحماء (*eleémones*)

ترد كلمة «رحمة» في ثمانية مراجع، كلّها خاصّة بيسوع (مصدر وفعل)[٢]. ويتبيّن لنا أنّ رحمة يسوع موجّهة دائمًا إلى فئتَين من الناس: المرضَى والخطأة. وليست هذه الرحمة نظريّة لكن فعّالة وعمليّة، وهي مبنيّة على واقع «الشفاء»: الشفاء من المرض الخارجيّ (عمى وشلل، إلخ.)، ومن المرض الداخليّ: الخطيئة.

(٢) ٩: ١٣، ٢٧؛ ١٥: ١٢؛ ١٧: ١٥؛ ١٨: ٣٣؛ ٢٠: ٣٠-٣١؛ ٢٣: ٢٣.

أطهار (*katharoi*)

– «فأخذ يوسف الجثمان ولفّه في كتّان **طاهر**» (٢٧:٥٩). من الملفت أنّ المصطلح «طاهر» لا يرد إلاّ هنا في الإنجيل، في إطار دفن يسوع[٣]. يفيد النصّ أنّ يوسف الرامي طلب من بيلاطس الجثمان ليدفنه، وكان يوسف الرامي قد تتلمذ أيضًا ليسوع (٢٧: ٥٧). كما يوضّح أنّه وضع الجثمان في قبر جديد (٢٧: ٦٠). تحيط بدفن يسوع بعض المؤشّرات: يُعنى بالكتّان **الطاهر** أنّه لم يُستخدَم سابقًا، وهذا يعني أنّه خال من كلّ دنس ناتج عن اللمس أو الاتصال بجسد آخر. كذلك الإشارة إلى القبر الجديد: يقول الإنجيليّ إنّ يوسف الرامي حفره هو نفسه، ملمّحًا إلى أنّه صنعه له. لم يكن للمسيح منزلٌ خاصٌّ في حياته، ولن يكون له قبر خاصّ في موته. يملك الإنسان عادةً في مفهوم العهد القديم شيئَين: خطاياه وقبره؛ فالقبر هو إرث الخاطئ (أي ٢٤: ١٩): لم يكن للمسيح قبر لأنّ لم تكن له خطايا، كونه طاهرًا في قلبه وجسده.

قد تشير طهارة القلب في هذا الإطار المحدّد إلى الامتناع عن الخطيئة وعدم الاحتكاك بها: هي طهارة تعتمد الزهد والتجرّد (إشارةً إلى ما سبق) والابتعاد الجذريّ عن كلّ أمر مدنِّس للقلب.

فاعلو السلام (*eirenopoioi*)

– «وقد حقّق السلام بدم صليبه» (كول ١: ٢٠).

إنّ المصطلح «فاعل السلام» لا يرد إلاّ مرّة واحدة في العهد الجديد، في الرسالة إلى أهل قولسّي؛ فهل قرأ متّى هذه الرسالة؟ ينبغي علينا أن نوضّح هذا المصطلح في ضوء هذا المرجع الوحيد.

---

(٣) يرد فعل «طهّر» أربع مرّات (٨: ٣، ٢؛ ١٠: ٨؛ ١١: ٥)، ويشير دائمًا إلى تطهير البُرص من قبل يسوع، ومرّة واحدة إلى تطهير الكأس من الداخل (٢٣: ٢٥).

إنّ الإطار الذي يرد فيه «فاعل السلام» هو إطار «المصالحة»: مصالحة جميع البشر مع الله: «فقَد حَسُنَ لَدى الله أَن يَحِلَّ به الكَمالُ كُلُّه. وأَن يُصالِحَ به ومِن أَجلِه كُلَّ موجود مِمَّا في الأَرْض ومِمَّا في السَّماوات، وقَد حَقَّقَ السَّلامَ بِدَم صَليبِه» (كول ١: ١٩–٢٠)، ولا يمكن أن تتمّ هذه المصالحة إلاّ بذبيحة دم المسيح على الصليب.

تأخذ التطويبة هذه بعدًا دراماتيكيًّا، إذ يتّضح لنا أنّ القيام بفعل السلام يقتضي بذل ذات وتضحية تامّة، تضحية قد تقود المؤمن إلى الاستشهاد، من أجل مصالحة البشر مع الله.

مضطهدون (*dediogmenoi*)

– «أَحِبُّوا أَعداءَكم وصَلُّوا مِن أَجلِ مُضطَهِديكُم، لِتَصيروا بني أَبيكُمُ الَّذي في السَّماوات» (٥: ٤٤–٤٥).

يرد هذا المصطلح في خطبة يسوع على الجبل[٤]، ويتّضح فيها أنّ محبّة الأعداء والصلاة من أجل المضطهِدين هما باب للدخول في الشركة الإلهيّة؛ ففي الاضطهاد ينال المؤمنون «البنوّة الإلهيّة». تدخلنا هذه التطويبة في سرّ «أخوّة يسوع» : نصبح في الواقع إخوة يسوع بقدر ما نتضامن معه في تحمّل نير الاضطهاد ومحبّة الأعداء، وهو اضطهاد يقود إلى الكمال: «فكونوا أَنتُم كامِلين، كما أَنَّ أَباكُمُ السَّماويَّ كامِل» (٥: ٤٨).

خاتمة

لاحظنا من خلال قراءتنا للتطويبات أنّها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا برسالة المسيح الشخصيّة، وكأنّها «تتدفّق من جنبه المطعون»؛ فهي رسالة تعانق دراما الصليب، كما أشارت إلى ذلك معظم المراجع. وهي تجتاز «صحراء ملتهبة»،

(٤) يرد فعل «اضطهد» مرّتَين (١٠: ٢٣؛ ٢٣: ٣٤)، ويبيّن كيف أنّ اضطهاد التلاميذ والأنبياء هو علامة واضحة لمجيء ابن الإنسان.

من «صحراء» التجارب في البرّيّة إلى «صحراء» القبر الفارغ، مرورًا ببستان الزيتون، وهي رسالة مدوّنة في سفر إنسانيّة المسيح، والتي تشكّل النافذة أو الباب الضيّق لدخول ملكوت السماوات.